التصوف والتفكير

التصوف نزع للانسان من الحياة المادية الفانية إلى حياة روحانية مشرقة تسمو بالروح . وترفع الانسان عن درك الحيوانية . والشهوات الدنيوية ، ولقد كان المتصوفة رضى الله عنهم ينعزلون ردحا من حياتهم عن الناس لعبادة الله والتفكر في ملكوته تعالى . . . كانوا يفكرون التفكير العميق . فيما خلق الله وصور وأوجد ، فبالتفكير يستطيع المرء أن يدرك عظمه خالقه . ودقة صنعه فالصانع تعرف قيمته بما صنع والله الصانع تعلم قدرته ودقته في الصنع . . بماصنع من هاته العوالم السابحة في الفضاء الشاسع . من شموس ونجوم وأراض وغيره الك . من هاته الظواهر الكونية البديعة .

هكذا نظر المتصوفة إلى ملك الله . فعرفوه . والمعرفة أقصى درجات العبادة فكان إيمانهم ايمانا راسخا . لم يزعزعه شيء ، ولا عصفت به أفكار ولا أهواء ، لأنه ليس تقليدا لآباء ولا لمجتمع . بل هو خارج من أعماق الوجدان .

ولقد أيقنوا أن التفكير فيما خلق الله من الكائنات في كيفية صنعها ، وتكوينها وتقديرها . وما لها من منافع وآثار ، ودقة يقف المرء أمامها عاجزا — يؤدي إلى تكيف الفهم ، فيعتر الشخص على إيمان يطمئن به القلب وينشرح له الصدر . . ايمان صدر بعد أن صرف كل

إدراكه وجوارحه وفكره فى آثار الخالق .. صرف ملأ القلب والوجدان والسمع والبصر، فاستولى عليه الجمال جمال الكون الذى أبدعه الخالق وصوره أحسن تصوير وابدعه . إنه مجال صنع الخالق . . صنع الله الذى أتقن كل شىء .

هكذا نظر المتصوفه إلى ملك الله . . فانشرح صدرهم ، وفازوا بالهداية ورشفوا من معين الايمان الخالص ، فخضعوا ، خضوعا لمن خلق تلك العوالم ، فكان خضوعهم . خضوعا نظريا قلبيا ، فرددوا : ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد اخزيته . وما للظالمين من أنصار ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للايمان إن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد .

فعند ذاك شهد والله تعالى بالعلم . . العلم الكامل بكل شىء . . بكل ما يلج فى الأرض ، وما يخرج منها . وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، دبيب النملة وسقوط الورقة ، ولا ادنى من ذلك ولا أكثر إلا وهو تعالى يعلمه ، قدر له وقته وميعاده وكيفيته . . سبحانه سبحانه .

وشهدوا لله تعالى بالحكمة العالية . فقد خلق كل شىء وقدره تقديرا . خلق الانسان وقدر عليه الموت ، ليبلوه ويختبره ، وخلق الأرض وجعلها له مسكناً ، فمنها خلقه ، وإليها يعود . فرأوا أن الله قبلة لكل التقديرات .

وتعمق الإيمان فى نفوسهم . فشهدوا بأن الله هو القاهر المتجبر ، يفعل فى ملكه ما شاء دون منازع أو معين ، فيعبدوه وحده ويستعينوا به وحده ، هو المستحق لكل شكر وعبادة وسجود ، وهو تعالى أكرم

من يطلب فيعطى العطاء الجزيل ، ويرحم الرحمه الواسعة ، فاتجهوا إلى الله بكل الطاعة الصادرة من القلب ، وذكروا الله فى كل حال قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم .

حصل لهم كل هذا بصرف الفكر فيما أبدع الله ، فشفت روحهم ، وتفتحت لتلقى آيات الله المنبثة فى أنحاء الوجود ، فرأوا لله صفات تفرد بها ، وملكا تفرد بتدبيره وإحكامه وبذلك تفتحت لهم ابواب السعاده والخير وأغلقت دونهم أبواب الشرور والاثام لأنهم أدركوا حقيقه مائلة فعرفوها حق المعرفة .

وعند ما كانت تعزب عن فكرهم حقائق لا يستطيعون إدراكها ومعرفة كنهها ، يكون سبيلهم الوحيد لإدراكها هو كلام الخالق وعرفوا أن البشر لا سبيل لهم لمكالمة الخالق لأن المكالمة والمخاطبه تقضى بالمماثلة والمجانسة ، إنما كلام الخالق يأتى بواسطة الوحى: « ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء إنه على حكيم » . فتوجهوا إلى كلام الخالق فنظروا وامعنوا فيه النظر فظهرت الحقائق جلية واضحة بعد أن كانت عميقة عن فكرهم بعيدة .

إنه الإيمان بكتاب الله تعالى يصنع المعجزات : يهدى للتفكر فلا يدعوك القرآن لأن تؤمن بالله تقليداً ، ودون ابداء رأى . . كلا فهو يدعوك لأن تفكر التفكير الصحيح فيما هو موجود فى هذه العوالم المتحركة المنظمة ، السائرة على منهج قويم دقيق . . نظروا هكذا فى كتاب الله ، فتيقنوا أن لابد للمصنوعات من صانع ، وللمتحركات من محرك أو كما قال الأعرابى : « السير يدل على المسير ، وهذه سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج أو لا يدل هذا على اللطيف الخبير » .

هكذا كان إيمانهم نابعا عن المشاهدة الدقيقة ، والتفكير العميق .

فآمنوا بالصانع وهذا الصانع تجمعت فيه كل صفات الكمال ، وإنه أهل لأن تعبده ، ونسجد له ونخضع لجلاله وحده ، وإنه أهل لأن يفرض علينا ما يشاء من فضائل :

هكذا نبع فى قلوبهم الايمان ، فكان إيمانهم واضحا ثابتا وتيقنوا أن الايمان الذى لا يبنى على تفكير ليس بايمان ، ومن كان إيمانه مبنياً على تفكير فذاك هو الايمان الصحيح الايمان الذى يوصل صاحبه إلى السعادة فى الحياتين .

وهكذا عاشوا لله ، . واستشهدوا فى سبيله . وسرت بذكرهم الركبان .. على مر الزمان ، فرضى الله عنهم أناروا لنا السبيل لنقتدى وسهلوا لنا الطريق لنمر .. رضى الله عنهم ، وسلام عليهم فى الخالدين .

اسماعيل الخطيب

تقدير الثورة

للامام الأستاذ الشيخ عبد الباقى سرور نعيم

قرر مجلس محافظة البحيرة تسمية مدرستى قراقص الاعداديتين للبنين والبنات بمركز دمنهور إباسم فقيد الاسلام فضيلة الاستاذ الامام الشيخ عبد الباقى سرور نعيم تقديراً لجهاده واجلالا لعلمه وفضله .

وأسرة الفقيد الكبير تتقدم بخالص الشكر للسيد الاستاذ وجيه أباظة محافظ البحيرة وأعضاء مجلس المحافظة جميعا على هذه اللفتة الكريمة فى إحياء ذكرى المجاهدين الاطهار ، إحياء للقيم الرفيعة والمثل العالية المضيئة .